إثراء
المعارف الرقمية

بريد الجمعة

بريد الجمعة

الجمعة ■ ١٢ يوليو ٢٠٠٢ ■

يكتبه: عبدالوهاب مطاوع

الشمعة المنطفئة

أنا قارئ دائم لبريد الجمعة وكثيرا ماتخيلت نفسي في موقف صاحب أية مشكلة يناقشها البريد، ولم أتوقع أبدا أن يأتي يوم أرسل لك فيه ملتمسا منك كلمة مواساة لتطفئ نار همومي أو همسة أمل لتوقد شموع إيماني. فأنا رجل تجاوزت الستين من عمري تزوجت منذ ما يزيد على ثلاثين عاماً من فتاة طيبة همت بها وهامت بي وقضينا معاً سنوات من أجمل أيام العمر وفي بداية زواجنا عشنا السعادة بكل ما تعني الكلمة لكن هذه السعادة بدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً بسبب تأخر الإنجاب وكنا في أول الأمر لانهتم بذلك كثيراً. إلا أن تأخر الإنجاب طال حتى بلغ خمسة عشر عاماً أو تزيد. طفنا خلالها أنا وزوجتي على أطباء مصر وكلهم أكدوا لنا الواحد تلو الآخر أننا سليمان تماماً وليس فينا ما يمنع الإنجاب غير أنها إرادة الله. ولا أستطيع أن أصف لك كيف عشنا هذه الفترة العصيبة بين اليأس والرجاء، وبين ضغوط الأهل وضغوط المجتمع فالإنسان أسير مجتمعه ولا يستطيع أن يفلت من قيوده، وقد بلغ بنا اليأس مبلغاً عظيما حتى كنا نجلس أنا وزوجتي ساعات نبكي بكاء مراً عاتبين. بكل أسف. على الله أن جعلنا بين أهلنا فرادى بلا أنيس أو سند أو قرة عين حتى أصبحنا هدفاً يسيراً للشامتين وعبرة للمشفقين وبينما نحن بين المد والجزر حيث يرتفع إيماننا إلى عنان السماء، في حالة الرجاء، والأمل ثم ينخسف إلى سابع أرض في حالة اليأس والقنوط. بينما نحن كذلك. إذا بيوم جميل مشرق تبشرني فيه زوجتي بأنها حامل! ومهما فعلت فلن أستطيع أن أصف لك مدى فرحتي وسعادتي بهذا القادم الجديد إلى حياتنا وذهبنا إلى الطبيب الذي أكد لنا الخبر السعيد ومضى الحمل بسلام ولم يكن يعنينا أن يكون ذكراً أو أنثى فإذا به يأتي ذكراً جميلاً تبارك الله في خلقه فسميناه (وحيد) وكان اسماً على مسمى وطرنا به فرحاً وامتلأت حياتنا رغداً وسعادة وسعد من أجلنا الأقارب والجيران والأصدقاء. وبدأ وحيد يشب عن الطوق ويكبر وتكبر معه آمالنا وأحلامنا فأصبح طفلاً جميلاً ثم غلاما مطيعا فمراهقاً دمث الخلق رقيق المشاعر محبوباً من كل من يراه متفوقاً في دراسته وله جاذبية متفردة وكنت أراقبه في كل مراحل نموه وأدعو الله أن يطيل عمري حتى أرى أولاده يلعبون حولي، وفي خضم سعادتي بولدي الوحيد هذه كان ينتابني هاجس غامض يملأ قلبي، رعباً إذ كنت أتخيل أنني قد أموت قبل أن أفرح به عريساً وأسعد بأحفادي منه وعقدت العزم بيني وبين نفسي على أن يكون يوم تخرجه هو يوم زفافه حتى أقفز على الأيام وأعيش مع حفيد لي بعض الوقت.

ومضت رحلته في الدراسة بنجاح لفت الأنظار وكان من الأوائل دائماً ولم أبخل عليه بشيء، إذ كانت طلباته بالنسبة لي أوامر وأنهى دراسته الابتدائية ثم الاعدادية ووصل إلى الصف الثالث الثانوي هذا العام وكنا نودعه كل يوم بالقبلات ونستقبله بالأحضان وإذا تأخر بعض الوقت طار صوابنا من القلق وننزل إلى الشارع ننتظره على ناصية الطريق حتى يأتي مبتسماً ومداعباً وهو يردد أنه قد أصبح رجلا ويريد عروسا أيضا، وأضحك على ذلك وأبدي استعدادي لتلبية أول إشارة له في هذا الموضوع وفي أحد الأيام وبعد أن ودعنا ابننا بالقبلات كالعادة وهو ذاهب إلى مدرسته التي تقع بالقرب من شريط القطار قالت لي أمه أنها تشعر بانقباض غريب في صدرها فقلت لها ربما كان ذلك بسبب الربو وذهبنا إلى الطبيب ثم عدنا وما هي إلا ساعات قليلة حتى أتى إلينا الناعي بخبر ابننا طالب الثانوية العامة! فقد دهمه القطار بعد خروجه من المدرسة وهو يعبر الطريق، وأظلمت الحياة في أعيننا ومرة أخرى فإني مهما استدعيت من ذاكرة الكلمات فلن أستطيع أن أعبر لك عن مدى حزني وتعاستي إذ يكفي أن تعرف أننا لم نتحمل حتى كلمة المواساة من المواسين فأما أمه فقد أخذها الصمت بعد أن دعت بدعوى الجاهلية وظلت تردد ليتنا لم ننجب من الأصل ليتنا لم نره ليتنا بقينا عاقرين ثم طال صمتها وفقدت النطق، أما أنا فقد كنت أكثر ثباتاً نسبياً رغم أنني فقدت الرغبة في الحياة ولم أعد أرى لها أي معنى، غير أني أحاول الآن أن أقارن بين حالنا بدون إنجاب وحالنا اليوم بعد أن أنجبنا وربينا ثم فقدنا ابننا في ريعان شبابه، فأجد أن الحال الأول أهون آلاف المرات من الحال الثاني، ففي الأول كان لدينا الأمل وكنا لا نعرف قيمة ما نفقد على وجه اليقين أما في الحال الثاني فليس لدينا سوى اليأس وقد عاينا ما فقدناه وعرفنا كم هو غال وكم كانت الخسارة فادحة.

إنه الآن وبعد مرور أربعة أشهر على هذا الحادث أحاول أن أتأمل حكمة الله في حياتنا وقد أدركت أن حكمة الله في المنع هي عين حكمته في المنح، فالمنع من الله هو عطاء أيضا فلو أننا رضينا بقدر الله فينا عندما كنا بلا إنجاب لسعدنا وارتاح بالنا وقد أدركت بعد فوات الأوان أن عدم الإنجاب كان رحمة من الله لو كنا نعي ذلك، بينما كان الإنجاب ثم الفقد هولا شديدا لا يتحمله إلا الصابرون وما أقلهم فليرض إذن الذين لو علموا أن العقم نعمة كبرى لشكروا الله عليها غدوا وعشيا. وأرجو منك أن تتوجه بكلمة إلى زوجتي توقد بها شموع حياتها وإيمانها إذ بالرغم من أنني خرجت إلى المعاش وأنا مدير لمدرسة ابتدائية إلا أنني فشلت في نزع فتيل الحزن من قلب زوجتي. ربما لأنني مكلوم مثلها وفاقد الشيء لا يعطيه. فلعلك تكون أقدر على ذلك مني بما وعيت من هموم ومشكلات ليس لها عدد.. ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعمارا إلى عمره كما قال الشاعر، كما أرجو أن يكون فيما رويته عليك عبرة لكل من يعتبر أن العقم مشكلة تستحق الحزن عليها.

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا تلم نفسك ياسيدي على أقدارك التي لم تخترها لنفسك. ولا تحاول البحث عن أسباب ومبررات تفسر بها هذه الأقدار الحزينة فتزيد بذلك من معاناتك بدلا من أن تتخفف من بعض الأحزان، وتتعزى عنها قدر الجهد والاستطاعة فمن قبيل محاولة التفسير أن تربط بين عدم تقبلك للحرمان من الإنجاب لأكثر من خمسة عشر عاما من الزواج.. وبين فاجعة فقد الابن الوحيد الذي جادت به عليك السماء بعد طول الانتظار، وأن تشعر بأنك لو كنت قد تقبلت أقدارك وقتها لما وقعت الفاجعة.. أو لما اكتويت بنار الثكل وانطفاء الشمعة التي كانت تنير حياتكم.. والحق هو أن تأخر الإنجاب عنك في بداية الزواج.. كان من تصاريف القدر، وكان انجابك لابنك الوحيد واستمتاعك بممارسة احساس الأبوة الذي تلهفت عليه طويلا معه ثم انطفاء الشمعة الصغيرة قبل أن تتم نورها قدرا مقدورا لك، ولا شأن لسخطك على تأخر الإنجاب في بداية الزواج. بما جرت به المقادير بعد ذلك، ومن واجب المكلوم أن يتلمس أسباب السلوى والعزاء وليس أن يضاعف من أحزانه وهمومه، بلوم النفس، والشعور الخاطئ بالذنب من أقدار لا حيلة له فيها.. وكأنما قد كان له دور معلوم في هذه الأقدار المسطورة من قبل مجيئه من عالم الغيب أو كأنما كان من الممكن أن يتغير القضاء المحتوم لو كان قد سلك في الحياة سلوكا مختلفا عما فعل.. وكل ذلك ليس سوى تداعيات للحزن العميق والاكتئاب ومحاولة لجلد النفس عقابا لها عن بعض خطراتها وشواردها.. والأفضل في مثل هذه الظروف الحزينة هو أن تردد ما قاله أحد كبار الصوفية في موقف مماثل: الخير أردت ولا يعلم الغيب إلا الله، ولا بأس بعد ذلك من محاولة النظر إلى المحنة من الزاوية الأخرى، واستبدال احساس الندم على أنك قد انجبت والاقتناع بأن حالك ربما كان أفضل لو كان الحرمان من الانجاب قد استمر إلى النهاية وأمل أن تجري مع النفس حوارا هادئا وتحاول الاقتناع بأنك وإن كنت قد اكتويت بنار الثكل المحرقة أعانك الله وأعان زوجتك عليها. فلقد جنيت كذلك مشاعر الأبوة .. وبهجة الانجاب .. وإيناس مداعبة الطفل الصغير ومراقبته وهو يحبو ثم يقف على قدميه ثم يمشي ويجري ويملأ الدنيا بهجة وسرورا، سنوات غاليات من العمر. وأنه لو رجع الزمن إلى الوراء لربما فضلت ألا تحرم منها بغض النظر عما جرت به المقادير بعد ذلك.

كما أن من يغيبون عنا لا يموتون عند رحيلهم.. وإنما حين ننساهم، ونحن لا ننساهم أبدا ياسيدي.. لأنهم يعيشون دوما في قلوبنا وذكرياتنا.. وتملأ صورهم مخيلتنا ونسمع أصواتهم في آذاننا.. وهم حاضرون دوما في وجداننا مهما بعدت الذكرى .. وبالتالي فإن التجربة لم تذهب سدى رغم أحزانها وآلامها، وإنما تركت لنا هذه الذكريات العزيزة والمشاعر الثمينة ..أما زوجتك الفاضلة فإني لا أجد من الكلمات ما أواسيها به.. لكني استعيد فقط ما قاله أحد الصالحين معزيا خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبدالعزيز في ولده الصالح التقي الذي قضى نحبه في مطلع الشباب حين قال له: إن الذي كان لك في الدنيا سرورا.. قد أصبح لك في الآخرة أجرا.

ذلك أن الحال كذلك معك ياسيدتي ومن كان لك في الدنيا سرورا وبهجة وإيناسا، قد أصبح لك في الدار الآخرة أجرا عظيما وسعادة باقية في الدار الأخرى بإذن الله.. «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون».

مع تمنياتي الصادقة لك بأن تتعايشي بقدر الإمكان مع أحزانك وتتقبلي أقدارك الأليمة في الحياة وألا تضاعفي من خسائرك بالاستسلام للحزن والقنوط إلى ما لا نهاية. والسلام.